أورشليم
في أسفار العهد القديم

SPC
BS
895
.J38
M86
2018
BZU

أ. د/إبراهيم نمر موسى
جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

أورشليم في أسفار العهد القديم

أ.د/إبراهيم نمر موسى

جامعة بيرزيت

SPC
BS
895
.J38
M86
2018
B2U

Special Collections
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY

Digitized by Birzeit University Library

اسم المؤلف : د.إبراهيم نمر موسى

عنوان الكتاب : أُورشليم في أسفار العهد القديم

رام الله

2018

Digitized by Birzeit University Library

تباهى بعض رجال الفكر والسياسة في إسرائيل في الآونة الأخيرة وعلى شاشات الفضائيات العربيّة، بحضور القدس/أورشليم في كتابهم المقدّس مئات المرّات مقابل ورودها مرّة واحدة في القرآن الكريم، ما يعني أهميّتها وقدسيّتها للشعب اليهودي، وأحقّيّته في امتلاكها دون غيره من أصحاب الديانات الأخرى، يضاف إلى ذلك أنّ أحد المتحدّثين الرسميين في جهة سياديّة في إسرائيل، يأتي على آيات قرآنيّة وأحاديث نبويّة شريفة تُحرّم مقاومة الاحتلال. لقد راودتني على الفور أسئلة وجوديّة ذات أبعاد: دينيّة وتاريخيّة واجتماعيّة وجغرافيّة، وجدتها صالحة للخوض في معترك هذه القضية، وكتابة دراسة تُعيد إلى الأذهان نشأة التاريخ اليهودي على أرض فلسطين وطبيعته، وتستجلي أبعاده الدينيّة والتاريخيّة وفلسفته الوجوديّة، أوجزها فيما يأتي: متى بدأ قدوم بني إسرائيل إلى أرض كنعان/فلسطين؟، وهل كانت الأرض خالية من البشر عند قدومهم؟، وما طبيعة حضورهم أصلاً؟، وهل كثرة ورود القدس/أورشليم في العهد القديم يترتّب عليه مشروعيّة امتلاكها؟ وهل كانت مقدّسة بالفعل لدى بني إسرائيل؟، ثم ما طبيعة حضورها الكثيف؟ وما سياقاته الدلاليّة؟.

ومهما يكن من أمر، فإنّني سأخصص في سياق هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة بعامة، والأسئلة المحوريّة المتعلّقة بالقدس بخاصّة، وأتجاهل القول الثاني لتهافته وضعفه البيّن؛ لأنّه يُخضع الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة قسراً لتفسيره المُنبتّ عن مقاصدها الدينيّة، وستكون الإجابة شاملة في إطار مناقشة تتوسّل العلميّة والموضوعيّة، معتمدة على إحصاءات استقصائيّة معززة باقتباسات توضيحيّة من أسفار العهد القديم

Digitized by Birzeit University Library

ذاتها، ومعتمدة كذلك على مبادئ: الوصف، والتفسير، والموازنة، والقياس بين النصوص حسب الحاجة.

بين العهد القديم والتلمود

يحسن بنا قبل البدء في مناقشة الفكرة الرئيسيّة أنْ نحدد الفرق بين العهد القديم والتلمود بما يخدم الموضوع ويحدد مقولاته ومصطلحاته؛ ليتبيّن القارئ أصل الشريعة اليهودية وفروعها وما عليه المعوّل في استقاء التعاليم والأحكام والفرائض؛ إذ سيتبيّن لنا أنّ العهد القديم حسب رأي (إسرائيل فنكلشتاين)، يُطلق عليه العلماء أيضاً "الكتاب المقدّس العبري"، ويمثّل الكتاب الدّيني المقدّس المركزي لليهوديّة، وهو مجموعة من الأساطير، والقوانين، والأشعار، والنّبوءات، والفلسفة، والتاريخ، كُتبت كلّها تقريباً باللغة العبريّة، ثم وُسّعت، وزُيّنت لاحقاً من قِبَل محررين مجهولين، ومُراجعين متعددين على مدى قرون عدّة، وينقسم العهد القديم/الكتاب المقدّس العبري تقليدياً -حسب رأي فنكلشتاين-إلى ثلاثة أقسام رئيسيّة: أولها (التوراة)، وثانيها (الأنبياء)، وآخرها (الكتابات)(1)، ويمكن أن نصطلح على تسمية القسمين الثاني والثالث في متن هذه الدراسة بـــ (الأسفار الأخرى) للتسهيل والإيجاز.

أمّا التوراة فتُسمّى النّاموس، وهي الأسفار الخمسة الأولى المكتوبة، وتشكّل أصل الديانة والوحي المنزّل على (موسى) عليه السّلام، ولا يعترف السّامريون بغيرها، وأسفارها كالآتي:

Digitized by Birzeit University Library

1- سِفر التكوين: يتناول خلق الله للسموات والأرض، وقصص: آدم وحواء، ونوح، وإبراهيم وأولاده حتى يوسف عليهم السّلام.

2- سِفر الخُروج: يحكي قصّة (موسى) عليه السّلام منذ ولادته حتى خروجه من مصر ومعجزاته، ويشتمل أيضاً على تعاليم وفرائض وحدود منها: فرائض الفصح، والوصايا العشر، والقصاص في القتل وعدم قتل البريء، وحماية الأملاك ومعاقبة السّارق، والبُعد عن الكذب والنّفاق واضطهاد الغريب، وفرائض السبت والأعياد السنويّة الثلاثة، ثم يتحدّث عن تابوت العهد، والعجل الذّهبي، والنّهي عن سبّ الله...إلخ.

3- سِفر اللّاويّين: يعني الأحبار، لكنّه يضيف تعاليم وفرائض وأحكاماً أخرى لـــ (موسى) عليه السّلام، منها: تقديم القرابين والذّبائح للرّب وشروطها، ونصيب الكهنة، والطعام الطاهر والنّجس، وأنواع الطّهارة، وتحريم أكل الدّم، وتحديد الأعياد...إلخ.

4- سِفر العدد: يشتمل على كلام الرّب لـــ (موسى) عليه السّلام في بريّة سيناء، وترتيب الأسباط، وعدد عشائر اللاويين، ويضيف تعاليم أخرى، منها: التوبة من الخطيئة وشروطها، وخيانة الزوجة، وردّ المسلوب والتعويض عن الخطأ، والموت لمن يكسر السبت، ويذكر الأعياد والقرابين، وتقسيم الغنائم، وموت (هارون) عليه السّلام، ومراحل مسيرة شعب إسرائيل إلى بلاد كنعان...إلخ.

5- سِفر التّثنية: يهتم بإعادة الناموس، ويتحدّث عن التّيه في البريّة، وتقسيم الأرض، وحرمان (موسى) عليه السّلام من عبور الأردن،

Digitized by Birzeit University Library

وتحريم عبادة الأوثان، وأنّ الربّ هو الله، والوصايا العشر، وطرد الأمم والعجل الذّهبي، والأطعمة الطّاهرة والأطعمة النّجسة، ثم عودة إلى بعض الأعياد: الفصح، والمظال، وشرائع متنوّعة أخرى، وموت (موسى) عليه السّلام على جبل (نيبو) وليس في أرض كنعان؛ عقاباً له على خيانة الرّب وعدم تقديسه له في وسط بني إسرائيل عند ماء (مَريبة قَادَش) في بَريّة (صِين)!.

وتنقسم الأسفار الأخرى للعهد القديم إلى قسمين أساسيين يتفرّع منهما مجموعات عدّة: أوّلها قسم (الأنبياء)، ويشتمل على مجموعتين من الكتب المقدّسة، تُسمّى الأولى بـــ (الأنبياء السابقين) أو القدماء، وتتضمّن أسفار: يشوع، والقضاة، وصموئيل الأوّل، وصموئيل الثاني، والملوك الأوّل، والملوك الثاني، وتحكي قصّة شعب إسرائيل منذ عبوره نهر الأردن وغزوه أرض كنعان حتى هزيمته ونفيه/السّبي على أيدي الأشوريين والبابليين. أمّا المجموعة الثانية فتسمّى بـــ (الأنبياء المتأخرين) أو اللاحقين، وتتضمّن أسفار: إشعيا، وإرميا، وحزقيال، وهوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجّي، وزكريا، وملاخي، وتتحدّث عن إلهامات الوحي، وتعليمات اجتماعية، وإدانات مُـرّة، وتوقّعات وتنبّوات.

وأخيراً، يتضمّن القسم الثاني المسمّى بـــ (الكتابات) ما تبقّى من الأسفار ومجموعاته كالآتي: أوّلها (الأشعار) وأسفارها: أيّوب، والمزامير، والأمثال، وثانيها (اللُّفافات الخمسة) وأسفارها: راعوث، وأستير، والجامعة، ونشيد الأنشاد، ومراثي إرميا، وثالثها (النُّبوءة)

Digitized by Birzeit University Library

وسفرها: دانيال. ورابعها (التاريخ) وأسفارها: أخبار الأيام الأوّل، وأخبار الأيام الثاني، وعـــزرا، ونحميا، وهي على العموم مجموعة من المواعظ، والقصائد، والصّلوات، والابتهالات، والأمثال، والمزامير، ويرى (فنكلشتاين) أنّه من الصّعب ربط تلك الكتابات بمؤلّف تاريخي معيّن؛ لأنّها حصيلة عمليّة مستمرة من التأليف امتدّت على مدى مئات السنين[2]، ولا شك في أنّ الإشارة إلى عملية (التأليف) البشري ذات مغزى في هذا السيّاق على الكتاب (المقدّس) العبري!. وجدير بالذّكر أنّ عدد أسفار العهد القديم (39) سِفراً منها الأسفار الخمسة الأولى التي تُسمّى (التوراة)، و(34) سِفراً اصطلحنا على تسميتها بالأسفار الأخرى.

أمّا التلمود فقد بدأت فكرته الأولى بعد السّبي البابلي في سنة (586) قبل الميلاد، حين قرر الحاخامات والأحبار والكتَبة قراءة التوراة ودراستها وشرحها وتفسيرها في اجتماعات علميّة، ثم انتقلت إلى بيوت العبادة؛ لحفظ التراث الدّيني اليهودي، ومن ثَم نقله مشافهة إلى الأجيال اللاحقة، وصولاً إلى مرحلة التدوين ما بين القرنين الثاني والخامس للميلاد. وينقسم التلمود إلى قسمين رئيسيين: الأول (الميشنا) "وهذا الاسم مشتق من الجذر "شانا" بمعنى راجع، وكـــرّر، وتدل –الميشنا– أيضاً على التعليم الشفهي الذي يرسخ في الذّهن بالتكرار"[3]، فهي إذن بمعنى المرجع أو الموضوع، وقد صُنّفت بحيث تشتمل على مجموعة من الكتب، ينقسم كل كتاب إلى فصول وفقرات تبيّن آراء الحاخامات والأحبار والكتَبة وتفسيراتهم للمسائل الدينيّة، والأخلاقيّة، والتقاليد، والقضاء...إلخ، "وهكذا بدت (الميشنا) جاهزة في ستة أجزاء (السداريم) الأوامر، التي يشتمل كل

Digitized by Birzeit University Library

منها على عدد من (الماسيشتوت) أي الكتب الموسّعة التي يبلغ تعدادها ثلاثة وستين كتاباً، ومن ثَمّ تنقسم كلّ موسوعة إلى فصول، والفصول إلى فقرات، وبلغ عددها 523 فصلاً"[4]، وذلك بناء على فهمهم لنصوص التوراة، وأسفار العهد القديم.

ويُسمّى القسم الثاني للتلمود بـــ (الجيمارا) أي التفسير أو التكملة أو الإضافة، وقد ظهرت الحاجة إلى ذلك بعد بروز آراء وأفكار شرعيّة جديدة "لا يمكن أن نجدها داخل "الميشنا"... وقد حرصت دراسات اليهود الخاصّة على مدى عدّة قرون على اكتساب معرفة الميشنا والتعليقات التي تكدّست فوقها شيئاً فشيئاً. هذه التعليقات أُشير إليها بكلمة "جيمارا" الإضافة أو التّكملة؛ لأنها تُكمل الميشنا، وأُطلق على الذين يشرحونها لقب "آمورايم"، خطباء، مفسّرون"[5]. وتجدر الإشارة إلى وجود علاقة تداخل بين (الميشنا والجيمارا) من جهة، والتلمود (الأورشليمي) الفلسطيني، والتلمود (البابلي) من جهة أخرى، حيث جُمع الأوّل في فلسطين في حوالي سنة 400م، وجُمع الثاني في بابل في حوالي سنة 500م، وقد بيّن الحاخام (كوهين) أنّ التلمود الأول يشتمل على نصّ الميشنا والحواشي، وكذلك على تسعة وثلاثين بحثاً من الجيمارا، ويشتمل الثاني على سبعة وثلاثين بحثاً من الجيمارا[6].

وبالرّغم من أنّ التلمود حسب المعلومات السابقة من عمل البشر، وليس وحياً منزّلاً من الله على (موسى) عليه السّلام، إلاّ أنّ اليهود سرعان ما قدّسوه وجعلوه في مرتبة مساوية للتوراة، بل رفعه كثير منهم على التوراة ذاتها، وعلى خلاف ما سبق ذكره أيضاً، فإنّني وجدت في

Digitized by Birzeit University Library

كتاب الحاخام (كوهن) ما يشير صراحة إلى أنّ (التوراة الشفهيّة) أُعطيت من الله لـ (موسى) عن طريق الوحي في سيناء ما يدل على قدسيّتها، ويأتي على ذكر (الميشنا)، المُتعارف على أنّها قسم من أقسام التلمود، وهذه خلاصة كلامه: إنّ للتوراة الشفهيّة قِدَم النصّ المكتوب نفسه، أي أنّها أُرجعت تفصيلياً أو مبدئياً إلى الوحي في سيناء، فقد أُعطيت لـ (موسى) عليه السّلام، عندما ظهر القدّوس الواحد (المُمجّد) على جبل سيناء ليعطي التوراة لإسرائيل، وسلّمها إلى (موسى) على الترتيب الآتي: التوراة، والميشنا، والهاغّادا/الرّواية لمعرفة القدّوس، وقد أثارت هذه النظرية حول التوراة الشفهيّة معارضة قويّة من الصدّوقيين –طائفة يهوديّة في مقابل الفريسيين– وبالطبع فإنّ الحاخامات أعطوا وزناً استثنائياً لأهميّتها وقيمتها[7].

كما نجد صدى هذا التّقديس بين جنّبات كتاب الحاخام (كوهن)، وذلك في إجابات الحاخامات، فقد سأل "الحاكم الروماني (كونيس) الحاخام (غاماليل): ما مجموع التوراة التي أُعطيت لإسرائيل؟، أجاب الحاخام: اثنتان: واحدة مكتوبة، والثانية شفهيّة. والقصّة نفسها بين الحاخام (هيليل) والضابط الوثني المتهوّر...جاء وثني إلى الحاخام شاماي وسأله: كم لديكم من التوراة؟ أجاب: اثنتان: مكتوبة وشفهيّة، فالأولى لتزويدهم بمبادئ يتمكّنون بواسطتها من الحصول على الاستحقاقات، والثانية ليميّزهم الله عن الأمم الأخرى[8]، ولا شك في أنّ هذا الاختلاف بحاجة إلى بحث معمّق ليس مجاله هذه الدراسة المحدودة في موضوعها عن أورشليم، إلاّ أنني أقول: إذا كانت التوراة نفسها وحياً من الله بإجماع علماء اليهود،

Digitized by Birzeit University Library

وكذلك (الميشنا) -حسب زعم بعضهم- فلم بدّلوا وغيّروا في كلام الذي يصفونه في التوراة والتلمود بالقداسة، والكمال، والمُمجّد، والعالِم بكل شيء؟!.

وجدير بالذّكر أنّ التلمود يزخر بالتمييز العِرقي ضد الأمم الأخرى، ويفيض بالقتل، ويغصّ بالدماء، ويشتعل بسعير تحريق البشر والمدن والدّواب بلذّة غريبة استباحها أنبياؤهم بأمر إلهي -زوراً وبهتاناً- والأصل في ذلك أنّهم أُرسلوا من الله الرّحمن الرّحيم ليكونوا هداية ونوراً ورحمة للعالمين، وهذا كلّه بحجّة أنّ اليهود يصفون غير اليهودي بـ (الغوييم) أو (الأغيار)، وهؤلاء أرواحهم شيطانيّة، وأصلهم من الحيوانات المتحوّلة إلى صورة البشر ليأنسوا بهم ويسخّروهم لأعمالهم وخدمتهم، وبالتالي لا يوجد غير اليهودي يمتلك صفات الكمال الإنساني/ البشري الأصيل، فهو إذن شعب الرّب المقدّس، وقد ورد ذلك أيضاً في العهد القديم "لأنّك شعب مقدّس للرّب إلهك، وقد اختارك الرّب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض"[9]؛ لذلك لم يتورّعوا حتّى من قتل الأنبياء، وقد ورد ذلك صراحة في إنجيل متّى: "فأنتم تشهدون على أنفسكم أنّكم أبناء قتلة الأنبياء...أيّها الحيّات أولاد الأفاعي، كيف تهربون من دينونة جهنّم؟؛ لذلك ها أنا أُرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتَبَة، فمنهم تقتلون وتصلبون، ومنهم تجلدون في مجامعكم"[10].

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، إذ امتلأت أسفار كثيرة في العهد القديم بمظاهر القتل والتدمير للأمم الأخرى، منها ما ورد في سِفر يشوع وما فعله في مدينة (أريحا)، ثم مدينة (عاي)، و(حبرون)، و(غزّة) وغيرها

Digitized by Birzeit University Library

كثير، وذلك بأمر الرّب كما يزعمون "وحرّموا كلّ ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحدّ السّيف...وأحرقوا المدينة بالنّار مع كلّ ما بها"[11]، وهذا يتطابق مع ما ورد في التوراة من أنّ (الله) جلّ وعلا يوصي بني إسرائيل قائلاً: "حين تَقْرُب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصّلح، فإنْ أجابتك إلى الصّلح وفَتَحتْ لك، فكلّ الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُستعبد لك. وإنْ لم تُسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإنْ دفعها الرّب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السّيف...هكذا تفعل بجميع المُدن البعيدة منك جداً، التي ليست مِنْ مُدن هؤلاء الأمم هنا، وأمّا مُدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرّب إلهك نصيباً فلا تَسْتَبْقِ منها نَسَمة ما"[12]، ولعل تفسير قوله: (هؤلاء الشعوب)، أي الذين في جوارهم من الحثّيين والأموريين واليبوسيّين والكنعانيين وغيرهم، فهؤلاء جعل لهم كُتّاب التلمود حُكْماً خاصّاً أكثر قسوة من غيرهم؛ لأنّهم سكان الأرض الأصليون الذين عايَنوا شدّة بأسهم، وواجهوا غزوهم بصلابة، ودافعوا عن أرضهم وحقّهم ضد الغريب العابر "فتطرد الكنعانيين لأنّ لهم مركبات حديد لأنّهم أشدّاء"[13].

وما يؤكّد الاستنتاج السابق قدوم زعماء (جبعون) على (يشوع) متنكّرين خوفاً من قتلهم وأهلهم، ومؤكّدين له أنّهم قادمون من بلاد بعيدة جداً ليقطعوا معه عهداً بعد أن سمعوا قتل بني إسرائيل لأهل (أريحا)، و(عاي)، فقال رجال إسرائيل لأحدهم: "لعلّك ساكنٌ في وسطي، فكيف أقطع لك عهداً؟"[14]، وعندما انجلت حقيقة الأمر لعنهم (يشوع) وجعل

Digitized by Birzeit University Library

منهم عبيداً، وبالتالي فإنّ أعداءهم بين خيارين اثنين أحلاهما مُـرّ إلى يوم النّاس هذا، وهما: الموت أو العبوديّة.

لقد جعل كُتّاب العهد القديم من كلامهم مقدّساً للأجيال القادمة ليمعنوا في القتل والتدمير والتحريق، مما يظهر نيّتهم في اغتصاب حقوق (الأغيار)، ولا شكّ في أنّ هذا يفسّر تقديسهم له، أو يشكّل –على الأقل– أحد الأسباب الجوهريّة لمناسبته لأخلاقهم تُجاه الأمم الأخرى، لاسيّما أنّهم لم يجدوا مفـرّاً من الإذعان للأمر الواقع وهم الغزاة المعتدون؛ لعدم قدرتهم على حسم الأمر وطرد السكان الأصليين أو إبادتهم، فقَبِلوا كارهين العيش مع الفلسطينيين في أرض كنعـان "فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثّيين والأموريين والفرزّيين والحوّيين واليبوسيين...وعبدوا آلهتهم، فعمل بنو إسرائيل الشّـرّ في عينيّ الرّب، ونَسُوا الرّب إلههم، وعبدوا البعليم والسّواري"[15].

وهنا ملحظ مهم دالّ إمّا على اضطراب كُتّاب العهد القديم ووقوعهم في تناقضات تاريخيّة، أو أنّه أمـر قابل للاجتهاد والتأويل، أمّا الأوّل فيعتمد على مبدأ الموازنة، التي تُظهِر التناقض مع ما ورد في سِفر (يشوع) من أنّه غـزا المدن الجنوبيّة والمدن الشماليّة وغيرها من أرض كنعان واستولى عليها جميعاً، "فأخذ يشوع كلّ الأرض حسب كلّ ما كلّم به الرّب موسى، وأعطاها يشوع مُلكاً لإسرائيل حسب فِرَقِهم وأسباطهم، واستراحت الأرض من الحرب"[16]، لكنّنا سرعان ما نكتشف أنّ السِّفر يناقض نفسه أيضاً عندما يشير إلى أنّهم استولوا على رقعة محدودة جداً من أرض كنعان، كما يتحدّث عن الأراضي الباقية التي لم تُمتلك بعد،

Digitized by Birzeit University Library

وهي كثيرة جداً منها على سبيل المثال لا الحصر "كلّ دائرة الفلسطينيين، وكلّ الجشُوريين من الشيحور الذي هو أمام مصر إلى تُخم عقْرون شمالاً تُحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة: الغـزّيّ والأشدُوديّ والأشقلُونيّ والجتّيّ والعقْرونيّ"[17] وغيرها كثير، وهؤلاء جميعاً وبخاصّة أقطاب الفلسطينيين الخمسة لم يهادنوا إسرائيل، ولم يسعوا ألبتّة للصّلح معهم، وبقيت رحى الحرب دائرة بينهم وبين بني إسرائيل، بل وأذاقوهم مرارة الهزيمة في مستهلّ الأحداث "وضربوهم في المنحدر، فذاب قلب الشعب وصار مثل الماء"[18].

أمّا الثاني القابل للاجتهاد والتأويل، فمرجعه إلى اجتهاد شخصي في تفسير النص التوراتي، يعتمد على تسليط الضوء على لفظة (الأرض) في الاقتباس السابق والاقتباسات الأخرى، تلك الأرض التي كلّم الربّ بشأنها (موسى) عليه السّلام وآباءه، أو ما يعرف بـ (الوعد الإلهي)، وشأنها –الأرض– أنّها اسم مُعـرّف بـ (الألف واللام) والمعرفة أخصّ من النكرة، وهو دالّ –الاسم– على الخصوص لا العموم، أي أنّه حسب قرائن السياق محصور في جزء من الأرض، وليس عموم الأرض الفلسطينيّة، فيكون (يشوع) قد سيطر على كلّ الأرض/أرض وعد بها الربّ موسى، "أمّا كلّ دائرة أملاك الفلسطينيين" وما جاء بعدها في النص التلمودي السابق ذكره من أراضٍ فلم يسيطر عليها (يشوع)؛ لذلك فإنّها لا تدخل ضمن هذا الوعد، وكذلك (أورشليم/ يبوس)، وهذا يؤكّده سِفر القضاة التالي لسِفر (يشوع) بعد موته إذ يقول: "وفيما هم عند يبوس والنّهار قد انحدر جداً، قال الغلام لسيّده: تعال نميل إلى مدينة

Digitized by Birzeit University Library

اليبوسيين هذه ونبيت فيها. فقال له سيّده: لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا."[19]، وهذا يعني أن القدس/أورشليم لم تكن تحت سيطرة اليهود وقتئذ، وأنّهم يشعرون بغربتهم عنها، بالرغم من كثرة غزواتهم ومدّة وجودهم في أرض كنعان/فلسطين، وإذا أنكروا علينا ذلك رددناهم إلى التناقض.

وأمّا (الوعد الإلهي) نفسه فهو منعقد بين طرفين وفق شروط محددة أهمّها اتّباع الشريعة المنزّلة على أنبيائهم، ولا شك في أنّ بني إسرائيل حسب العهد القديم وليس سواه قد نكثوا عهدهم مع الله في كلّ لحظة من لحظات حياتهم، وخانوا وصاياه، ونكصوا على أعقابهم واتخذوا الشريعة من ورائهم ظهريًا، وهذا يفسّر كثرة الأنبياء الذين أُرسلوا إليهم دون سواهم من الأمم الأخرى؛ ليردّوهم إلى سواء السبيل، ومنهم النبي (إشعياء) الذي يبدأ سفره بعنوان (أُمّة متمردة)، ويصفهم بالعُصاة، وعدم الفهم، ثم يقول: "ويلٌ للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلي الشـرّ، أولاد مفسدين!، تركوا الربّ، استهانوا بقدّوس إسرائيل، ارتدّوا إلى وراء...لولا أنّ ربّ الجنود أبقى لنا بقيّة صغيرة لصرنا مثلَ سدوم وشابهنا عَمُورة"[20]، لكنّ ذلك لم يردعهم، ولم يَعُد بهم إلى اتّباع الحق، واستمرأوا الانحراف كي لا يفارقوا أخلاقهم وطبائعهم، حتى بعث الله (عيسى بن مريم/يسوع) عليه السّلام فأنكروا عليه النبوّة وقال له رؤساء الكهنة: بأيّ سلطان تفعل هذا؟، ومن أعطاك هذا السلطان؟، فردّ عليهم أسئلتهم، لكنّهم لخبثهم خافوا أن يجيبوا؛ لأنّهم إنْ قالوا من السماء ألزمهم الحُجّة على أنفسهم للإيمان به وهم عن هذا راغبون أو كارهون، ولم

Digitized by Birzeit University Library

يقولوا من الناس لخوفهم من الشعب، كما أنّهم جعلوا هيكل الله كما قال لهم (يسوع) مغارة لصوص[21]. وهذا كلّه لا يحتاج إلى مزيد نقاش وإثبات على نكثهم لعهود الله، وعدم تقيّدهم باتّباع أوامره ووصاياه، وخروجهم على الشريعة والأنبياء، أي أنّهم لم يفوا بميثاقهم مع الله، فعاقبهم على نقض ميثاقه، وهذا غيض من فيض معروف في تاريخهم.

ينضاف إلى ما سبق أمر سكت عنه كثير من الباحثين، مفاده أنّ الوعد الإلهي بدأ مع (إبراهيم) عليه السّلام، حين قال للرّب ماذا تعطيني وأنا عقيم، وأنّك لم تعطني نسلاً، ومَالِكُ بيتي هو (أليعازر الدّمشقي) الذي سيرثني، حينها قال له الرّب: "لا يرثك هذا، بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك"[22]، ومن المعلوم أنّ نسل (إبراهيم) من أحشائه/صُلبه: إسماعيل وإسحق، وهما المقصودان وكذلك شريكان في الوعد الإلهي، واستثناء (إسماعيل) منه وتخصيصه لـــ (إسحق) وحده لا شك فيه مخالفة دينية، وإنكار للوعد الإلهي نفسه، ويرجع ذلك إلى مكوّنات نفسيّة بإحساسهم الحادّ بامتيازهم، وتفوّقهم العِرقي على الأمم الأخرى؛ لأنّهم على حدّ زعمهم (شعب الله المختار)، أو (شعب الرّب)؛ ولأنّ (إسماعيل) ابن لـــ (هاجر) الجارية كما زعموا؛ ليسلبوه كلّ حقوقه الشرعيّة، وهذا تمييز عِرقي تأباه الشرائع الدينيّة والقوانين الوضعيّة العالميّة، والأصل أنّ (هاجر) امرأة شريفة من شريفات مصر الفرعونيّة، وفي هذه المعاني يقول (سيجموند فرويد) اليهودي: "ولا شك أنّ اليهود يحتفظون بفكرة عالية عن أنفسهم، ويعتقدون أنّهم أنبل من غيرهم، وعلى مستوى أعلى، وأكثر تقدّماً من الآخرين...فهم يصدّقون في الواقع ما يقولونه عن أنفسهم

Digitized by Birzeit University Library

من أنّهم شعب الله المختار، ويؤمنون بأنّ الله قد قرّبهم منه بصفة خاصة"[23].

كما أكّد الحاخام (كوهن) أنّ الحاخامات قاموا بتضخيم مقولة "شعب الله المختار" إلى درجة كبيرة جداً، ويشدد التلمود في كل مكان بوضوح على القرابة الثابتة والفريدة الكائنة بين الله وشعبه[24]، وقد وصل بهم الأمر إلى توزيع سكّان العالم بين إسرائيل والأمم الأخرى، وأنّ الرّب لن يتوقّف عن السّهر عليهم، وأنّ العلاقة التي تجمع إسرائيل بالله متينة لدرجة أنّ الطريقة التي تُعامل فيها على الأرض لها تداعياتها على الله في السّماء، وكل مَنْ يتمرّد أو يقف ضد إسرائيل فإنّه يتصرّف كما لو أنّه يتمرّد على الرّب القدوس المُمجّد، وإذا (صفع) الأممي اليهودي فجزاؤه (الموت)، وأنّ الله لم يخلق السماء والأرض إلاّ مراعاة لإسرائيل[25]. وعلى العموم، إذا كان بنو إسرائيل قد نكصوا على أعقابهم في تنفيذ الوعد الإلهي، ونكثوا بكلّ عهودهم مع الله وأوامره ووصاياه، ولم يعودوا بعد ذلك شعبه المختار، فإنّ نسل (إسماعيل) العربي ما زال متمسّكاً بكامل حقه الإلهي في فلسطين والقدس. والخلاصة أنّ الوعد الإلهي المنقوض لم يعد قائماً.

وهكذا لولا لُطف الله الرّحمن الرّحيم الذي زيّفوا عليه الباطل لخسف بهم الأرض، وفي هذا المعنى قال (فرويد) عن إله إسرائيل: "لقد كان إلهاً فظّاً، ضيّق العقل، محلياً، عنيفاً ومتعطّشاً للدّماء، وكان قد وعد أتباعه أن يعطيهم أرضاً تفيض لبناً وعسلاً، وشجّعهم على أن يخلّصوا البلد مِنْ سكّانه الحاليين بحدّ السّيف، ومن المدهش حقاً أنّه رغم كلّ هذه

Digitized by Birzeit University Library

المراجعات لنص التوراة، قد سُمح للكثير أن يبقى"[26]، وها هنا تأكيدان: الأول عنف إله بني إسرائيل وقسوته وحبّه لسفك الدماء كما زعموا، ويُقصد به الإله (يهوه)، وتبدو مهمته في رأي (فنكلشتاين) لدى قبيلة يهوذا في جنوب فلسطين، وهناك أيضاً (إيلوهيم) أو (إيل) الذي تبدو مهمته لدى قبائل: أفرايم، ومَنَسّى، وبنيامين في شمال فلسطين[27]. أمّا التأكيد الثاني فيشير إلى إجراء مراجعات أو إعادة صياغة من فترة إلى أخرى بالحذف والإضافة والتعديل على نصوص العهد القديم، ثم عَجَب الكاتب وامتعاضه من عدم حذفهم لمثل هذه الأقوال، وهذا كلّه –على الأقل– ينفي صدقيّة هذه النصوص، كما ينفي قداستها المُخترَعة المتوارثة جيلاً بعد جيل، وهذا لا تتصف به الأسفار الأخرى فحسب، بل تتصف به الأسفار الخمسة الأولى (التوراة) في رأي فنكلشتاين الذي يقرر: "أصبح الكل يُجمع على أنّ الأسفار الخمسة (التوراة) ليست تأليفاً فردياً واحداً (كتلة واحدة)، بل تجميع وترقيع لمصادر مختلفة، كلّ منها كُتب تحت ظروف تاريخية مختلفة؛ لإبداء وجهات نظر دينية، أو سياسية مختلفة"[28]، وقد صدق الله جلّ وعلا في محكم آياته، التي لا يدخلها التحريف أو التبديل في قوله: "فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون"[29].

فضاء العهد القديم

بعد إنعام نظر في أسفار العهد القديم، وإشاراتها المتكررة، وتأكيداتها الصّريحة عن السكّان اليبوسيين والكنعانيين والفلسطينيين،

Digitized by Birzeit University Library

وأنّهم أصحاب الأرض الأصليون، وأول من سكن أرض فلسطين، فقد حفّزني ذلك على اختيار كلمات ذات دلالة ترتبط بموضوع هذه الدراسة ارتباطاً وثيقاً، ويخدم مقاصدها في تفنيد دعاوى القوم، ودحض مزاعمهم، فاخترت الكلمات (فلسطين-كنعان-يبوس)، لمعرفة عددها في أسفار العهد القديم، وكانت نتيجة إجراء البحث الإحصائي عن (فلسطين) وحالاتها البنائية (فلسطين-فلسطينيون-فلسطينيين-فلسطينيات...إلخ) ورود ذكرها (253) مـرّة، منها (10) مـرّات في التوراة. وأمّا (كنعان) وحالاته البنائية (كنعاني-كنعانيون-كنعانيين- كنعانيات...إلخ) فورد ذكره (164) مـرّة، منها (93) مـرّة في التوراة. وأمّا (يبوس) وحالاتها البنائية (يبوس-يبوسيون-يبوسيين-يبوسيات...إلخ) فورد ذكرها (44) مـرّة، منها (11) مـرّة في التوراة.

لا شك في أنّ هذا الكمّ الهائل من الحضور الفلسطيني الكنعاني العربي يشير دون مواربة إلى أصحاب الأرض الأصليين، ويدلّ على هويّتهم المتجذّرة في المكان، الذين بنوا حضارة يمكن الاستدلال عليها أيضاً من الكشوفات الأثرية في تلّ العمارنة وغيره، كما يستدل عليها من آثارهم الباقية في تدبير شؤون حياتهم، وتأسيس أكثر من مئتي مدينة قبل أن تطأ أقدام بني إسرائيل هذه البلاد بمئات السنين، ومنها: عكّا، وحيفا، ونابلس، وعسقلان، وبيسان، وغـزّة، كما سنّوا الشّرائع والقوانين التي نظّموا بها معاملاتهم، ما يشكّل مملكة أو دولة لها أرضها وحدودها الجغرافيّة، وسكّانها، وسلطتها السياسية.

Digitized by Birzeit University Library

لكنّنا لن نبتعد كثيراً عن التوراة التي تنصّ صراحة على الملك اليبوسي ومملكته (شالم)، الذي كان موحّداً وبارك (إبراهيم) عليه السّلام، وهذا فيه ما فيه من رفعة التوحيد والإيمان والصّلاح حتى يبارك نبي الله (إبراهيم الخليل) عليه السّلام، وفي هذا تقول التوراة: "وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً، وكان كاهناً لله العليّ، وباركه وقال مبارك أبْرَامُ من الله العليّ مالكِ السماواتِ والأرض"[30]، وكذلك على لسان (أبيمالك) ملك جرار لإبراهيم عليه السّلام، عندما أخذ الأول (سَارَة) فجاءه (الله) في حُلمه ينذره بالموت من أجل المرأة التي أخذها لأنّها متزوجة: "فبكّر أبيمالك في الغد، ودعا جميع عبيده، وتكلّم بكلّ هذا الكلام في مسامعهم. فخاف الرجال جداً، ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له: ماذا فعلتَ بنا؟، وبماذا أخطأتُ إليك حتى جلبتَ عليّ وعلى مملكتي خَطيّة عظيمة؟"[31]، ثم ردّ إليه (سَارَة)، وخيّره في اتخاذ مسكن مما حَسُنَ في عينيه من أرض، وهذا دليل ساطع على أنّ إبراهيم عندما انتقل من مسقط رأسه (أور) متوجّهاً إلى (حاران) ثم (أرض كنعان)، أنّه كان غريباً عن هذه البلاد، وأنّه لم يكن يملك أرضاً ألبتّة، وهذا الدليل يؤكده إبراهيم عليه السّلام عند وفاة زوجته (سَارَة)، إذ طلب من الحِثّيين في حبرون/الخليل قائلاً: "أنا غريب ونزيل عندكم، أعطوني مُلك قبر معكم لأدفن ميّتي من أمامي"[32]، فأعطاه (عِفرون الحثّي) حقلاً هبةً، وكذلك المغارة التي فيه "وبعد ذلك دفن إبراهيم سَارَة امرأته في مغارة حقل المَكْفيلة أمام مَمْـرا، التي هي حَبْرون، في أرض كنعان"[33].

Digitized by Birzeit University Library

تزدحم الإشارات التوراتية المؤكّدة بوجود ممالك كنعانية على أرض فلسطين فيما سبق، مثل: شالم، وجرار، وكذلك ممالك أخرى لم أذكر قصصها رغبة في الإيجاز ومنها: حبرون، وشمرون، وسدوم، وعمورة، وأدمة، وصبوييم، وبالع، وهي تشهد بوجود ممالك كاملة السيادة قبل قيام (مملكة) داود عليه السّلام بمئات السنين، حيث تأسست مملكته في حوالي سنة (985) قبل الميلاد، أي بعد (يشوع) بأربعة قرون تقريباً، وقد أسسها على جزء صغير من أرض (يبوس) التي هي (أورشليم) حسب تعريف التوراة "وأخذ داود حصن صهيون، هي مدينة داود...وأقام داود الحصن وسمّاه مدينة داود"[34]، وهذا اعتراف بأنّ (داود) عليه السّلام لم يسيطر على المدينة كاملة، وإنّما سيطر على جزء صغير "حصن صهيون" وهو بجوارها، ثم سمّاها مدينة داود، وهذا يعني أنّ (أورشليم) بقيت يبوسيّة إلى زمن (داود) عليه السّلام، وكان اليبوسيون سكان الأرض يعيشون فيها، ويمارسون حياتهم وأعمالهم المعتادة "وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم، إلى أرض اليبوسيين سكّان الأرض"[35]، وكذلك في سفر آخر "وذهب داود وكلّ إسرائيل إلى أورشليم أي يبوس، وهناك اليبوسيون سكّان الأرض"[36]، وحتى هذا الزمن –زمن داود– وفي أوج قوة مملكته، وأعظم اتّساع لها، وفي ذروة انتصاراته، لم يستطع السيطرة على السّاحل الفلسطيني من مدينة يافـــا إلى مدينة غـــزّة، ولم يكن لـــ (أورشليم) في ذلك الزّمن أيّة مكانة خاصّة أو مقدّسة في نظر بني إسرائيل، وتعاملوا معها على أنّها مجرد مدينة لا تكتسب أيّة مزايا خاصّة تفوق باقي المدن الفلسطينية الأخرى "كم هو غريب على اليهود التصوّر بأنّ أورشليم

Digitized by Birzeit University Library

(القدس) برزت إلى مركز الوعي الإسرائيلي فجأة وفي زمن متأخر فقط!؛ والسبب في غرابة هذا التصوّر هو أنّه يصدم ذلك التصوّر الشائع الذي استطاعت أسفار الكتاب المقدّس (التوراة) بقوة تأثيرها القصصيّة الخاصّة، أن تقنع به العالم من أنّ أورشليم مثّلت دائماً مقاماً مركزياً لتجربة جميع الإسرائيليين...كم ستبدو مدينتهم الملكيّة الواقعيّة صغيرة جداً"[37].

يضاف إلى ما سبق، أنّ (سليمان) ابن (داود) عليهما السّلام -حسب زعمهم- بنى معابد لآلهة اليبوسيين، وأحبّ نساءهم، "وأحبّ الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون: مؤابيّات وعمّونيّات وأدوميّات وصيدونيّات وحثّيّات من الأمم الذين قال عنهم الرّب لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم، لأنّهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبّة...وكان في زمان شيخوخة سليمان أنّ نساءه أمَلن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرّب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشْتوروث إلهة الصّيدونيين، وملْكوم رجس العمّونيين، وعمل سليمان الشّر في عينيّ الرّب...فغضب الرّب على سليمان لأنّ قلبه مالَ عن الرّب إله إسرائيل الذي تراءى له مرّتين، وأوصاه ألاّ يتّبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرّب"[38].

بناء على ما سبق، فإنّ هذا كله يكذّب المزاعم الصهيونيّة التي تدّعي أنّ أرض فلسطين بلا شعب لشعب بلا أرض، ويؤكّد في الوقت نفسه وجود شعب سكن هذه الأرض وأقام عليها حضارة راقية، وهو الشعب الفلسطيني الذي ورد ذكره في أسفار العهد القديم حسب الإحصاءات المذكورة سابقاً (253) مرّة، منها (10) مرّات في

Digitized by Birzeit University Library

التوراة، ولكي لا نكتفي بالإحصاء المجرد ونتجاوز الكمّ العددي نحو الكيف والسياق الدلالي، فإنّ أكثر المرّات كانت تُحيل إلى امتلاك الفلسطيني للأرض أو أرض الفلسطينيين بعامّة، وتغرّب (إبراهيم) فيها، وذهاب إسحق لملك الفلسطينيين عندما كان في الأرض جوع[39]، وعدم هداية الله لهم لطريق أرض الفلسطينيين عند خروجهم من مصر مع أنّها قريبة[40]، وقتْـل (إيهود بن جيرا البنياميني) عشرة آلاف رجل من المؤابيين، ولم ينجُ أحد، كما قتل (شَمْجر بن عناة) ستمئة من الفلسطينيين، ثم عودة بني إسرائيل لعبادة الأوثان وبعل/البعليم وعشتاروت وآلهة الفلسطينيين، ودَفْع الرّب إسرائيل بيد الفلسطينيين بعد أن عملوا الشرّ في عينيه[41]، ثم حكاية شمشون ودليلة الفلسطينية، وقتْله وإحراقه المستمر لمزروعات الفلسطينيين[42]، ثم أخْذ الفلسطينيين تابوت العهد وردّه لبني إسرائيل بعد ذلك، وتَجَمُّع الفلسطينيين في مِخْماس بثلاثين ألف مركبة، وستة آلاف فارس لمحاربة الملك شاؤول، وقد انتهت المعارك معه بقتله وقتل أبنائه الثلاثة، ثم استمرار المعارك بين (داود) عليه السّلام والفلسطينيين وقتله (جُليات) الفلسطيني وهو من جتّ... إلخ"[43]، وغير ذلك كثير، ومنه القتل والتدمير وإحراق البشر والشجر والمدن بالنار.

وهكذا، فإنّ هذه الأدلة والبراهين المستقاة من نصوص العهد القديم التي يؤمن بها اليهود ويقدّسونها، ويتلونها في صلواتهم، لم تستطع تغيير دعاواهم الباطلة، أو تزويرهم للتاريخ، أو نفي أساطيرهم الزائفة على مـرّ الأيام وكـرّ السنين بأحقيّتهم التوراتية والتاريخية في أرض فلسطين، كما أنّهم لم يكتفوا بإنكار عروبة فلسطين، بل راحوا يروّجون

Digitized by Birzeit University Library

بأنّ الفلسطينيين اسم مخترع لا وجود له بالرّغم من حضوره السّاطع في أسفارهم، فها هي (غولدا مئير) تدّعي بقولها: "لا يوجد شعب فلسطيني، وكأنّنا نحن الذين جئنا لإخراجه من دياره، والاستيلاء على بلده، فهم (الفلسطينيون) لا وجود لهم"[44]، أي أنّه لا يوجد أصلاً في وهمها الزّائف ما يُسمى فلسطين والشعب الفلسطيني، وهذا إنكار وجحود لماهيّة المكان وكُنهه الأول باعتباره مكاناً عربيّاً سكنه الفلسطيني اليبوسي الكنعاني العربي منذ القِدم، وقبل أنْ يخطّ التاريخ حرفاً واحداً في سيرة بني إسرائيل بمئات السنين، وأقول (بني إسرائيل) قاصداً إلى أنّ لفظ (اليهود) لم يرد مطلقاً في أسفار التوراة، وهذا له مغزى لن أناقشه هنا لضيق المقام؛ وذلك رغبة في التركيز على الموضوع الأساسي دون الخوض في قضايا أخرى، وإنْ كان يستحق العناية والدراسة المتأنية من الباحثين.

وخلاصة الأمر، إنّ هذا كلّه لهو خير دليل في بُعده الدّيني على ضعف يقين اليهود بالله، وكذبهم عليه، ونكثهم لعهده معهم، وتكذيبهم لشريعتهم المنزلّة على (موسى) عليه السّلام، وهذا ليس غريباً لأنّهم كذّبوا (موسى) عليه السّلام قبل أن يكذّبوا شريعته، وافتروا عليه افتراء كبيراً، وبهتوه بهتاناً عظيماً، وقد رأوا عياناً معجزاته في مصر، وأثناء خروجهم منها، وذلك حين لاموه في الخروج من أرض مصر وفضّلوا أن يبقوا عبيداً لفرعون على إخراجه لهم وموتهم في البريّة، وقالوا لموسى: هل لأنّه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البريّة، وقالوا له أيضاً: أليس هذا هو الكلام الذي كلّمناك به في مصر قائلين: كُفّ عنّا فنخدم المصريين؟[45]، وتذمّرهم منه لأنّهم لم يجدوا ماء للشرب[46]، وسؤالهم

Digitized by Birzeit University Library

له: لماذا أصعدتنا من مصر لتُميتَنا وأولادنا ومواشينا بالعطش؟[47]، ثم اجتماعهم على (هارون) عندما رأوا أنّ (موسى) أبطأ في النزول من الجبل، وطلبوا منه -حسب زعمهم- أن يصنع لهم آلهة تسير أمامهم، فوافقهم وجمع الذهب وصنعه عجلاً مسبوكاً، وقالوا هذه آلهتكَ يا إسرائيل التي أصعدتكَ من أرض مصر[48]، بل لم يقف الأمر عند حدّ العامّة من شعب إسرائيل، وتجاوزه إلى أحد أنبيائهم (يشوع) الذي وجّه لوماً/ تأنيباً للربّ بعد أن أذاقهم أهل (عاي) مرارة الهزيمة في أوّل الأمر "فذاب قلب الشعب وصار مثل الماء، فمزّق يشوع ثيابه وسقط على وجهه إلى الأرض... وقال يشوع: آه يا سيّد الربّ! لماذا عبّرتَ هذا الشعب الأردنّ تعبيراً لكي تدفعنا إلى يد الأموريّين ليُبيدُونا؟ ليتنا ارتضينا وسكنّا في عبر الأردنّ"[49].

أورشليم في العهد القديم

سنتبيّن في هذا المبحث عدد ورود (أورشليم) في العهد القديم، وطبيعة حضورها بتصنيفه في حقول دلاليّة، تسهيلاً للدّراسة في إنتاج دلالات مستقاة من الإحصاء العددي، ثم مناقشة ما يتمخّض عنه هذا الإحصاء وتفسيره والتعليق عليه، وذلك لاستجلاء الحقائق الدينيّة والتاريخيّة، أو استجلاء أجزاء منها على الأقل -دون ادّعاء زائف أو مبالغة مسرفة- وسأقتصر على أهم الإشارات الدالّة على حضور (أورشليم) في العهد القديم/التوراة والأسفار الأخرى التي تدلّ على مغزى ديني، أو تاريخي، أو سياسي؛ باستثناء ما يتعلّق بالتعداد في ذِكر النسل

Digitized by Birzeit University Library

والإنجاب لأبناء الأنبياء والملوك، أو المرور والاقتراب من أورشليم، أو دخولها والخروج منها، أو دفن الموتى فيها، أو الاجتماع للفصح وعمل الفطير، فضلاً عن التكرار المسرف للإشارة الواحدة في أسفار عدّة...إلخ، وهي كالآتي:

1- مُلك الفلسطينيين: تحت حكم أدوني صادق ملك أورشليم، ثم ذهاب الملك داود إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكّان الأرض[50].

2- صعود بالقرب من أورشليم: وصعد (كالب بن يفُنّة) التُخم إلى جانب اليبوسي من الجنوب، هي أورشليم[51].

3- اليبوسيون سكان أورشليم وصعوبة طردهم والعيش المشترك: وأمّا اليبوسيون السّاكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكنوا معهم لهذا اليوم، وكذلك فعل بنو بنيامين[52].

4- ربط بين يبوس وأورشليم: وصيلَع وآلف واليبوسي، هي أورشليم[53].

5- سيطرة بني يهوذا على أورشليم: حاربوا أورشليم وأخذوها وضربوها بحدّ السيف، وأشعلوا المدينة بالنّار[54].

6- أورشليم مدينة غريبة عنهم: قال الغلام لسيّده: تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها، فقال له سيّده: لا نميل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا، بل قام وذهب وجاء إلى مقابل يبوس، هي أورشليم[55].

7- قتل داود لجُليات الفلسطيني: وأخذ داود رأس الفلسطيني وأتى به إلى أورشليم[56].

Digitized by Birzeit University Library

8- مملكة داود: وفي أورشليم مَلَك ثلاثاً وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا[57].

9- ندم الرّب على إهلاك أورشليم: وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها فندم الرّب عن الشّر[58].

10- مملكة سليمان: وصاهر سليمان فرعون ملك مصر، وأتى بزوجه إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرّب وسور أورشليم حواليها، وكانت الأيام التي ملك فيها سليمان في أورشليم على كل إسرائيل أربعين سنة[59].

11- غَضَب الرّب واختياره أورشليم: غضب الرّب على سليمان لأنّ قلبه مال عن الرّب إله إسرائيل، ولم يحفظ عهده ووصاياه وفرائضه، وسبب ذلك أنّ نساءه أمَلن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرّب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب وراء عَشْتُورَث إلهة الصيدونيين، وعمل الشرّ في عينيّ الرّب؛ لذلك مزّق مملكته تمزيقاً، لكنّه كما قال له: لن أمزّقها كلّها بالكامل لأجل داود عندي، ولأجل أورشليم التي اخترتُها[60].

12- صراع رَحُبعام بن سليمان: أرسل رحبعام بن سليمان أدورام إلى أورشليم فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة فمات، ولمّا رجع رحبعام إلى أورشليم جمع كل بيت يهوذا وسِبط بني بنيامين ليحاربوا بيت إسرائيل[61].

Digitized by Birzeit University Library

13- العجل الذّهبي في أورشليم: وعَمِل مستشار الملك عِجلي ذهب، وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر[62].

14- اسم الرّب وغضبه: وأقام الملك مَنَسّى مذابح للبَعْل في بيت الرّب الذي قال الرّب عنه: في أورشليم أضع اسمي، لذلك قال الرّب: وأمسح أورشليم كما يمسح واحدٌ الصحن، ثم قال الرّب: إنّي أنزع يهوذا من أمامي كما نزعت إسرائيل، وأرفض هذه المدينة التي اخترتها أورشليم والبيت الذي قلت يكون اسمي فيه[63].

15- السبي البابلي: سبى نبوخذ ناصّر ملك بابل كلّ أورشليم وكلّ الرؤساء وجميع جبابرة البأس، ثم أحرق بيت الرّب وبيت الملك، وكلّ بيوت أورشليم أحرقها بالنّار[64].

16- القتل والعودة إلى أورشليم: أخرج الشعب بني عمّون الذين بها ونشرهم بمناشير ونوارج حديد وفؤوس، وهكذا صنع داود لكل مدن بني عمّون، ثم رجع وكلّ الشعب إلى أورشليم[65].

17- عَزْل الملك يهوآحاز: عَزله مَلك مصر في أورشليم، وغرّم الأرض بمئة وزنة من الفضة وبوزنة من الذهب، وملّك مَلك مصر ألياقيم أخاه على يهوذا وأورشليم[66].

18- عزل الملك يهوياكين: عَزله الملك نبوخذ ناصّر، وملّك صِدقيّا أخاه على يهوذا وأورشليم[67].

Digitized by Birzeit University Library

19- سقوط أورشليم: عندما استهزأ اليهود برسل الله، وتهاونوا بأنبيائه، وأكثروا الخيانة وأتوا الرّجاسات، ونجّسوا بيت الرّب، فثار غضب الرّب على شعبه، فأصعد عليهم ملك الكلدانيين وأتى بالخزائن إلى بابل وهدم سور أورشليم فكانوا له عبيداً إلى أنْ ملكت مملكة فارس لإكمال كلام الرّب بفم إرميا، ثم أمر الملك كورش ملك فارس بعودة المسبيّين[68].

20- مسكن إله إسرائيل: حَمْل فضة وذهب تَبرّع بها ملك فارس لإله إسرائيل الذي في أورشليم مسكنه[69].

21- مزامير داود: مبارك الرّب من صهيون الساكن في أورشليم، هللويا. إنْ نسيتك يا أورشليم تنسني يميني. الرّب يبني أورشليم[70].

22- إشعياء وأورشليم: استيقظي، استيقظي، البسي عزّك يا صهيون، البسي ثياب جمالك يا أورشليم، المدينة المقدّسة[71].

23- إرميا وأورشليم: في ذلك الزّمان يسمّون أورشليم كرسي الرّب، ويجتمع إليها كلّ الأمم إلى اسم الرّب. فقلتُ: آه يا سيّد الرّب حقاً إنّك خداعاً خادعتَ هذا الشعب وأورشليم، قائلاً: يكون لكم سلام وقد بلغ السيف النّفس[72].

24- رجس أورشليم ودعاء إرميا عليها: طلب سكان يهوذا وأورشليم من الآلهة أن يخلّصوهم من البليّة، والإشارة إلى تعدد الآلهة بعدد مدن يهوذا وشوارع أورشليم، ووضعهم مذابح للخزي، ومذابح للتبخير للبَعْل، ثم يدعو (إرميا) على أورشليم بجعلها رجماً ومأوى لبنات آوى، فويل لك يا أورشليم لفسقك ورذالة زِناكِ، ثم

Digitized by Birzeit University Library

يصف أنبياء أورشليم بالفسق والكذب حتى صارت كسدوم وعَمورة، وقد أخطأت خطيّة ومن أجل ذلك صارت رَجِسة[73].

25- تشتيت اليهود: قال الربّ عن بني إسرائيل: أدفعهم للقلق في كلّ ممالك الأرض من أجل مَنَسّى بن حزقيا ملك يهوذا، من أجل ما صنع في أورشليم[74].

سأبني الأدلّة والبراهين في مستهلّ المناقشة بأحقيّة الشعب الفلسطيني في فلسطين بعامّة، والقدس بخاصّة، على ثلاث بدهيّات دينيّة وتاريخيّة مستمدة من العهد القديم ذاته. الأولى تشير إلى ورود ذكر (أورشليم) في العهد القديم (740) مـــرّة، وقد يفاجأ القارئ أنّه لا ينقسم على اثنين: التوراة والأسفار الأخرى، وأنّ كلّ هذا الحضور تركّز في الأسفار الأخرى فقط ابتداء من سِفر (يشوع) وانتهاء بسِفر (ملاخي)، أي دون وروده في التوراة المنزّلة على (موسى) بوحي من الله ولو لمرّة واحدة، وبمعنى أكثر وضوحاً فإنّ لفظ (أورشليم) لم تأت التوراة على ذكره ألبتّة في أسفارها الخمسة الأولى، وهذا أمر ذو دلالة مهمّة ومغزى عميق. وقد فصلت بين التوراة والأسفار الأخرى؛ لأنّ الخلط بينهما سيؤدي إلى نتائج مضللة، فما يرد في كتاب منزّل بوحي إلهي على نبيّ، يختلف عن مرويّات تاريخية أو دينيّة أو كلام أنبياء: حقيقي أو منتحل دوّنت بأقلام كَتَبة في أزمان متباعدة، وقد تأكّد لنا في الصفحات السابقة مدى التحريف والتزوير الذي اقترفه هؤلاء الكَتَبة في حق الله جلّ وعلا ورسله وأنبيائه، وهو كثيرٌ منه ما ذُكر ومنه ما لم يُذكر؛ لضيق المقام ورغبة في التفرّغ في هذا المبحث لمناقشة الأوهام والآثام.

Digitized by Birzeit University Library

وتؤكّد البدهيّة الثانية أنّ اليبوسيين وهم فرع من فروع الكنعانيين العرب، أوّل مَنْ أسس مدينة (يبوس) فنُسبت إليهم، وذلك في الألف الثالث قبل الميلاد، وأنّهم أول من سكن أرض فلسطين، وقد ربطت الأسفار الأخرى بشكل دائم باستدراك توضيحي عندما تذكر "يبوس" يتلوها مباشرة القول: "هي أورشليم"، كما وصفت الأسفار الأخرى الفلسطينيين حتى زمن متأخّر في عهد (داود) عليه السّلام بأنّهم "سكّان الأرض"، التي أطلقت عليها التوراة (أرض كنعان)، والإحصاءات السابق ذكرها عن (فلسطين، وكنعان، ويبوس) تؤكّد ذلك. أمّا أصل التسمية (أورشليم) فأصله كنعاني لا عبري، ويتكوّن من جزءين (أور) وتعني مدينة، و(سالم–شالم) وتعني السّلام، فهي إذن مدينة السّلام نسبة إلى (ملكي صادق) ملك (شاليم)، الذي كان موحّداً، وامتاز بحبه للسّلام حتى أُطلق عليه ملك السّلام[75].

وأمّا البدهيّة الأخيرة فتدلّ على شعور بني إسرائيل في أزمان كثيرة بغربتهم عن فلسطين بعامّة "إنّ تلك القصص تصف التاريخ المبكّر جداً للأمّة، وتحدد حدودها العرقيّة، وتؤكّد بأنّ الإسرائيليين كانوا غرباء، وليسوا جزءاً من السكّان الأصليين لكنعان" [76]، وكذلك غرباء عن القدس بخاصّة، وذلك منذ (إبراهيم) عليه السّلام، الذي وصف نفسه للحثّيين بأنّه "غريب ونزيل عندهم" فأعطاه (عفرون الحثّي) حقلاً هبةً، وكذلك الرّجل الذي رفض اقتراح غلامه المبيت في (أورشليم) لأنّها "مدينة غريبة" ولا يوجد أحد فيها من بني إسرائيل، وهذا يؤكّد أنّ (أورشليم) مدينة يبوسيّة ولا علاقة لبني إسرائيل بها من قريب أو من بعيد. وعندما بدأ غزو بني

Digitized by Birzeit University Library

إسرائيل لبعض المدن والممالك الفلسطينية واحتلالها، لم يستطيعوا طرد اليبوسيين السّاكنين في أورشليم بالرغم من القتل وسفك الدماء والنشر بالمناشير، ولم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكنوا معهم إلى هذا اليوم، وكذلك فعل بنو بنيامين.

بعد الفراغ من رصد البدهيّات نأتي الآن إلى مناقشة وصف اليهود لـــ (أورشليم) بالمقدّسة وأحقيّتهم بامتلاكها. أقول ابتداء، لقد ورد ذكر (أورشليم) في الأسفار الأخرى مرّات عدّة لا تتعدّى أصابع اليد الواحدة بأنّها "مقدّسة"[77]، وفي مقابل ذلك ورد ذكرها عشرات المرّات بأنّها مدينة (رجس-عاصيّة-فاسقة-رذالة زناك-ويلٌ لك يا أورشليم)، وهذا مثال: "وكانت إليّ كلمة الرّب قائلة: يا ابن آدم، عرّف أورشليم برجاساتها، وقُل: هكذا قال السيّد الرّب لأورشليم: مَخْرَجُكِ ومَوْلِدكِ من أرض كنعان. أبوك أمُوريّ وأمّك حِثّيّة"[78]، وكلام الرّب هذا يُصيب غرضين اثنين: الأول دالّ على تدنيسهم لأورشليم وعدم حفظ طهاراتها، والثاني أنّ أصلها كنعاني أموري حِثّي.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الأسفار الأخرى كلام بشري خطّته أقلام الكَتَبة في عصور متعاقبة، وتناقله الخَلَف من السّلَف وكرروا عباراته بشكل لا يخلو من إسراف. أمّا التوراة وهي كتابهم المقدّس المنزّل على (موسى) عليه السّلام فلم تأتِ ألبتّة على ذكر لفظ (أورشليم) لا من قريب ولا من بعيد، فلو كانت مقدّسة عندهم لذكرتها التوراة فهي أوْلى بها من الكتب والأسفار الأخرى، أمّا في القرآن الكريم فقد ورد ذكرها -حسب معرفتي- أربع مرّات بشكل مباشر وغير مباشر؛ وبهذا يتماثل عدد

Digitized by Birzeit University Library

ورودها ووصفها بـ (المقدّسة) في كلّ من الأسفار الأخرى والقرآن الكريم، ولكن يبقى فارق لا يمكن ردمه ولا تصحّ معه الموازنة/المقارنة بين كلام بشري توراتي، وآخر إلهي قرآني بوحي منزّل على نبيّه الكريم.

وردت الآية الأولى في القرآن الكريم في قوله تعالى: "قد نرى تقلّب وجهكَ في السّماء فلَنولّينّكَ قِبلة تَرضَاها، فَولّ وجهكَ شَطرَ المسجد الحرام"[79]، تشير الآية إلى تحويل القِبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة في مكّة المكرّمة، وهذا يدلّ على أنّ بيت المقدس كانت قِبلة المسلمين الأولى، وصلّى نحوها (الرّسول) عليه السّلام "ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله يحب أن يتوجّه نحو الكعبة...فقال السّفهاء من الناس –وهم اليهود– ما ولاّهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها..."قل لله المشرق والمغرب" أي قل يا محمّد الجهات كلّها لله، له جلّ وعلا المشرق والمغرب، فأينما ولّينا وجوهنا فهناك وجه الله أي قِبلته"[80].

وجاءت الآية الثانيّة في قوله تعالى: "قلنا يا نارُ كوني بَرْداً وسَلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كَيْداً فَجَعَلناهم الأخْسَرين، ونَجّيناه ولُوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين"[81]، فالآية تشير إلى (الأرض المباركة) في بيت المقدس وفلسطين قبل قدوم (إبراهيم) عليه السّلام، وقد بارك الله فيها للنّاس كافة، وليس لأُمّة خاصّة حسب زعمهم، وهذا يعني أنّ (قدسيّة) القدس ليست اختراعاً إسرائيلياً، وليست منوطة بوجودهم فيها أصلاً.

Digitized by Birzeit University Library

وحضرت الآية الثالثة في قوله تعالى: "والتّين والزّيتون وطور سنين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم"[82]، فقد أقسم الله جلّ وعلا بـــ (التّين والزّيتون)، وهو قَسَم لو تعلمون عظيم، ومقصودهما أنّهما جبلان في الأرض المقدّسة أي في بيت المقدس، وقال المفسّرون أيضاً: "أقسم تعالى بمنابت التّين والزّيتون، فإنّ التّين ينبت كثيراً بدمشق، والزّيتون ببيت المقدس، وهو الأظهر، ويدلّ عليه أنّ الله تعالى عطف عليه الأماكن الشهيرة "جبل الطّور"، و"البلد الأمين" فيكون قَسَماً بالبقاع المقدّسة التي شرّفها الله تعالى بالوحي، والرّسالات السّماويّة"[83]، فهي على الترتيب في رأي ابن كثير: بيت المقدس الذي بعث الله فيه (عيسى) عليه السّلام، وجبل الطّور الذي كلّم الله عليه (موسى) عليه السّلام، والبلد الأمين أي مكّة المكرّمة التي أرسل الله فيها (محمّداً) عليه السّلام، فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب، فأقسم بالأشرف، ثم بالأشرف منهما وهو (محمّد) عليه السّلام"[84].

وأكّدت الآية الرّابعة مرّة أخرى بركة القدس وقدسيّتها في قوله تعالى: "سُبْحَانَ الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذي باركنا حولَه لِنُريه من آياتنا إنّه هو السميع البصير"[85]، وهي آية معجزة في معناها ومبناها لاشتمالها على مغازٍ وعِبَــر وخيرات كثيرة منها: التسبيح والتنزيه، ورحلة الإسراء والمعراج في ليلة واحدة، والبَركَة، والوصول إلى سِدرة المنتهى تحت عرش الرحمن، وإمامة (محمّد) للأنبياء عليهم السّلام في المسجد الأقصى وهذا ذو مغزى كبير، ومقابلة (موسى) عليه السّلام والحوار على فرض الصّلاة وعدد ركعاتها،

Digitized by Birzeit University Library

ومشاهدة الرسول للأنبياء عليهم السّلام في طبقات الجنّة، ومشاهدة أهل النار، وكذلك (السميع) لأقوال محمّد، و(البصير) بأفعاله الحسنة، والعالم بتهذّبها وخلوصها له فأكرمه وقرّبه؛ وبذلك تنعدم المقارنة بين كلام الخالق وكلام المخلوق، بصرف النظر عن القلّة والكثرة، ألم يخلق الله المخلوقات بكلمة واحدة (كُن)؟، وخلاصة هذا الفرع الأول من المسألة -مؤقتاً- أنّ (القدس) أكثر قداسة للمسلمين من اليهود.

أمّا الفرع الثاني من مسألة (أورشليم) المقدّسة وأحقيّتها لليهود، فإذا احتجّوا على ما سبق ذكره، وقالوا بتقديس (الأسفار الأخرى) وكثرة ذكر (أورشليم) وتقديسها، رددنا عليهم الكرّة بأنّها كلام بَشَر كُتب بعد (موسى) عليه السّلام بمئات السنين لأغراض دينيّة أو سياسيّة، وليس منزّلاً من السّماء بوحي، وقد ذكر الحاخام (كوهين) بعضاً من هؤلاء الكَتَبة منهم أنبياء، ومنهم أفراد أو جماعات "وداود كتب المزامير بالتعاون مع عشرة من القدماء وهم: آدم (المزمور 139)، وملك صادق (المزمور 110)، وإبراهيم (المزمور 89)، وموسى وهامان (المزمور 88)، وعسّاف (المزمور 73، و83)، وأبناء كوري الثلاثة (المزامير من 42-49)...كتب رجال الكنيس الصّغير حزقيال، الأثنا عشر، دانيال، أستير كتب عزرا، حوليّات الأنساب ولم ينته منه أنهى نحميا الحوليّات...ومن الواضح أنّه خلال فترة خمسة قرون أخرى، فقد ظلّت مَنْـزِلة بعض الكتب ضمن المجموعة المقدّسة، موضع جدل"[86]، والجملة الأخيرة عن "مَنْزِلة بعض الكتب" دالّة على الشكّ والرّيبة في قدسيّة هذه الأسفار، بل صرّح أحد الحاخامات بأنّ نشيد الأنشاد يُدنّس الأيدي، كما ساوره الشكّ

Digitized by Birzeit University Library

في سِفر الجامعة، وصرّح آخر بأنّ نشيد الأنشاد وسِفر الجامعة يُدنّسان الأيدي[87]، وقد سعى الحكماء إلى استبعاد سِفر الجامعة لتناقضه واضطرابه، وهذا ما أشرت إليه في الصفحات السابقة.

واستكمالاً لما سبق ذكره، يمكن الرّد أيضاً على مقولة كثرة ورود (أورشليم) في الأسفار الأخرى، بأنّها ليست أكثر من عزف نَغَمة على وَتَـر واحد لكثرة الأنبياء الذين أرسلوا لبني إسرائيل نوراً وهداية؛ لأنّهم أمّة ضالة مُضلّة يشهد تاريخها على انحرافها الديني المستمر منذ (يعقوب) ومروراً بـ (عيسى) وانتهاء بـ (محمّد) عليهم السّلام، ويقابل ذلك عشرات الأحاديث النبويّة الشريفة لنبيّ (واحد) عن القدس، وهي أحاديث (مُسندة) تعتمد على (علم الجرح والتعديل) لمتن الحديث ورواته للاستيثاق من دقّته وصحّته وصدقه، وذلك خوفاً من التزوير والتحريف والانتحال...إلخ.

ومهما يكن من أمر، فإنّني سآتي على أمثلة من العهد القديم فقط ومن قصص بني إسرائيل مع أنبيائهم الذين شاهدوا معجزاتهم عياناً، وقد ذكرت بعضها سابقاً فلا مشاحة في التكرار أحياناً إذا قُصد به التذكير أو التعليم والتعلّم، وذلك حتى لا نستدلّ بأدلّة باطلة من خارج كتابهم، ولنتذكّر الآتي في إشارات سريعة تفادياً للإطالة، وقد سبق رصد أكثرها سابقاً في قائمة طويلة مصحوبة بالتوثيق: عبادة العجل المقدّس زمن (موسى) عليه السّلام، وغضب الرّب على سليمان، وسبب ذلك أنّ نساءه أمَلن قلبه وراء آلهة أخرى، فذهب وراء عَشْتُورَث إلهة الصيدونيين، وعَمِل مستشار الملك عِجلي ذهب، وقال لهم: هوذا آلهتكَ يا إسرائيل،

Digitized by Birzeit University Library

وأقام الملك مَنَسّى مذابح للبَعْل في بيت الرّب، وكلام (إرميا) عن تعدد الآلهة بعدد مدن يهوذا وشوارع أورشليم، ووضعهم مذابح للخِزي، ومذابح للتبخير للبَعْل، ويقول الرّب في سفر إرميا: طوفوا في شوارع أورشليم وانظروا هل تجدون إنساناً واحداً يعمل بالعدل ويطالب بالحق، فأصفح عنها.

وإذا أنعمنا النظر في المسألة ذاتها مرّة أخرى، ولكن من زاوية جديدة فإنّنا سنضيء جانباً معتماً بل مظلماً من تاريخ بني إسرائيل في علاقتهم بـ (أورشليم) التي يزعمون لها القداسة، وموجز ذلك ينبع من السؤال التالي والإجابة عنه. أمّا السؤال فمفاده: هل كانت (أورشليم) مدينة مقدّسة بالفعل في نظرهم؟، والإجابة تُحيلك إلى ضرورة التعمّق في قراءة الأسفار الأخرى أو الإنصات إليها والتدقيق في عباراتها وفق مبدأ القياس، لتكتشف معي أنّ لفظة (المقدّس) في تاريخ اليهود تتبع من شعور نفساني يغلب عليه الانفعال الصبياني في علاقته بالأشياء التي يُفتن بها أوّلاً ثم يجفو عنها بلا سبب ظاهر، وهكذا كانت حالة (أريحا) حين قَدِم رئيس جند الرّب –الوحي– إلى (يشوع) وهو في أريحا فسأله (يشوع) لأنّه لم يعرفه "هل لنا أنت أو لأعدائنا؟، فقال: كلاّ، بل أنا رئيس جند الرّب، الآن أتيت، فسقط يشوع على وجهه إلى الأرض وسجد. وقال له: بماذا يُكلّم سيّدي عبده؟، فقال رئيس جند الرّب ليشوع: اخْلَعْ نَعْلَكَ مِنْ رِجلِكَ؛ لأنّ المكان الذي أنت واقف عليه هو مُقدّس، ففعل يشوع كذلك"[88]، وهكذا تكون أريحا مقدّسة بأمر إلهي منزّل على (يشوع)، ويفترض أنْ يلتزم بنو إسرائيل بهذا الأمر الإلهي، لكنّنا نكتشف في السِفر بعد سيطرته على

Digitized by Birzeit University Library

المدينة ما يأتي: "وحلّف يشوع في ذلك الوقت قائلاً: ملعون قُدّام الرّب الرّجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة أريحا...وكان الرّب مع يشوع، وكان خبره في جميع الأرض"[89]، وهذا أمر عجب من جهات ثلاث: الأولى تتضح بتناقض الكَتبة واضطرابهم، والثانية تجعل الله جلّ وعلا يرجع عمّا قرره، والثالثة تدّعي مصادقته وإقراره لكلام يشوع.

وإذا استمررنا في استكمال ما سبق ذكره، سنكتشف أيضاً عدم قدسيّة (أورشليم)، إذ تزخر الأسفار الأخرى بذكر كلّ أنواع الآثام والموبقات والمحرّمات التّي اقترفها بنو إسرائيل فيها، ومنها: أنّ ملاك الرّب بسط يده على أورشليم ليهلكها[90]، ثم إحياؤهم من جديد سيرة (العجل المقدّس) ولكن هذه المرّة في (أورشليم) وليس في سيناء أثناء الخروج مع موسى، إذ عمِل مستشار الملك "عجلي ذهب، وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم، هو ذا آلهتُك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر[91]، كما أقام الملك منَسّى مذابح للبَعْل في بيت الرّب الذي قال الرّب عنه: في أورشليم أضع اسمي؛ لذلك قال الرّب: وأمسح أورشليم كما يمسح واحدٌ الصحن، ثم قال الرّب: إنّي أنزع يهوذا من أمامي كما نزعت إسرائيل، وأرفض هذه المدينة التي اخترتها أورشليم والبيت الذي قلت يكون اسمي فيه[92]، ثم قول الرّب لبني إسرائيل في سفر إرميا: طوفوا في شوارع أورشليم وانظروا، هل تجدون إنساناً واحداً يعمل بالعدل، ويطالب بالحق، لأصفح عنها، ثم وصف (إرميا) لأورشليم بأنّها رجس، وطلب من سكان يهوذا وأورشليم من الآلهة أن يخلّصوهم من البليّة، وتصريحه بتعدد الآلهة بعدد مدن يهوذا وشوارع أورشليم،

Digitized by Birzeit University Library

ووضعهم مذابح للخزي، ومذابح للتبخير للبَعْل، ثم يدعو على أورشليم بجعلها رَجْماً ومأوى لبنات آوى، فويل لك يا أورشليم لفسقك ورذالة زناك، ثم يصف أنبياء أورشليم بالفسق والكذب حتى صارت كسدوم وعمورة، وقد أخطأت خطيّة ومن أجل ذلك صارت رجسة[93].

إنّ عمل الموبقات بأنواعها، وعصيان الربّ، وعبادة العجل والبَعْل وعشتاروت في أورشليم، وتخلّي الربّ عنها وحديثه عن مسحها من الوجود كما نمسح الصحن، ورفضه للمدينة التي اختارها ليكون اسمه فيها...إلخ، كلّ ذلك يثير تساؤلات عدّة، أهمّها: ما الذي لم يفعله بنو إسرائيل في مدينتهم التي يدّعون قدسيّتها؟، وما كلّ هذا الرّجس والفسوق والعصيان الذي حوّل مدينتهم المقدّسة كما يزعمون إلى أشلاء نتنة، أو حانة للسّكارى والمجرمين وشُذّاذ الآفاق لممارسة الفاحشة والرذيلة يُعصى فيها الله، وهذا مخالف للجبلّة البشريّة السليمة، والفطرة الإنسانية النقيّة التي فطر الله جلّ وعلا العباد عليها، وأخيراً لو لم تكن (أورشليم) مقدّسة فماذا بقي ليرتكبوا فيها من آثام؟!، إنّهم يصفونها بألسنتهم وتأبى قلوبهم التصديق بأنبيائهم وكتبهم، بل كذلك بما هو أعظم وأجلّ: الله تبارك وتعالى، وهذا موضوع الفرع الثالث من المسألة. وهكذا نعاين بأمّ أعيننا كيفية التحوّل الانفعالي في تاريخ بني إسرائيل من المقدّس إلى المدنّس. وخلاصة هذا الفرع من المسألة -مؤقتاً-أنّ القدس هي الأكثر قداسة للمسلمين من اليهود.

أمّا المسألة الأخيرة والأخطر في هذه المناقشة، لعلّها تكون فاصلة بين الحق والباطل، وهي الاستهزاء بذات الخالق وصفاته جلّ

Digitized by Birzeit University Library

وعلا. يتّضح هذا الأمر الجلل في كثير من نصوص التوراة والأسفار الأخرى التي لا تجعل لله جلّ وعلا وقارا، ولا تقدّره حق قدره، بل وتنظر إليه في كثير من الحالات على أنّه واحد من البشر العاديين الذين لا يملكون أيّة مزايا خاصّة، وإلا كيف نفسّر صراع يعقوب مع الله الذي جاء تحت عنوان "يعقوب يصارع مع الله"، إذ جاء فيه "ولمّا رأى أنّه لا يقدر عليه، ضرب حُقّ فخذه، فانخلع حُقّ يعقوب في مصارعته معه، وقال: أطلقني؛ لأنّه قد طلع الفجر، فقال: لا أُطلقك إنْ لم تباركني، فقال له: ما اسمُك؟، فقال: يعقوب، فقال: لا يُدعى اسمُك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل؛ لأنّك جاهدتَ مع الله والنّاس وقَدَرتَ"[94]، كما وُصف (الله) عزّ وجلّ بالصفات البشرية مثل الندم والإحجام عمّا قرر فعله، أو ما فعله، وهذا كثير، ومنه على سبيل المثال لا الحصر "وبسط الملاك يده على أورشليم ليُهلكها فندم الرّب عن الشّر، وقال للملاك المُهلك الشّعب: كفى! الآن ردّ يدك، وكان مَلاكُ الرّب عن بيدر أُرونة اليبوسيّ"[95]، وكذلك في سفر آخر مع ملاحظة التكرار الذي أشرت إليه كثيراً فيما سبق، "أرسل الله ملاكاً على أورشليم لإهلاكها، وفيما هو يُهلك رأى الرّب فندم على الشرّ، وقال للملاك المُهلك: كفى الآن، ردّ يدك[96]، وكذلك التراجع عن قراره "وأرفض هذه المدينة التي اخترتها أورشليم والبيت الذي قلت يكون اسمي فيه"[97].

تشير الاقتباسات السابقة إلى قضايا دينية خطيرة؛ لأنّ الله ليس كمثله شيء، ولا يشبه شيئاً من المخلوقات والمُحدثات وإلاّ كان في حكمها، ويجري عليه ما يجري على البشر؛ وبهذا وقع بنو إسرائيل في خطر

Digitized by Birzeit University Library

تجسيم الذّات الإلهيّة، فسبحان الله عمّا يصفون علّواً عظيما. كما وقعوا في البَدَاء وهو خاص بالإنسان وليس بالله؛ لأنّ رجوع الإنسان عن قراره، وانصرافه إلى قرار جديد، ناتج عن عدم اكتمال معرفته واكتشاف معلومات جديدة لم تكن في حُسبانه حينئذ، وهذا يستحيل على الله العليم الخبير، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض أو في السماء. وغنيّ عن البيان وصفهم لله جلّ وعلا بالبخل والفقر وهو المنعم الغني وله المُلك. وهذا كلّه يدخل في باب ضعف الإيمان، وعدم اليقين بالله وبأنبيائه، واليقين بالله في رأي الإمام ابن قيّم الجوزيّة "روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقيّة، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه المدار"[98]. وهكذا نرى أنّهم لم يقدّسوا الرّب القدوس فكيف يقدّسون مدينته؟!.

والخلاصة الكليّة في هذه المسألة بلا شك هي أنّ يبوس، وأورشليم، والقدس، حقّ خالص للمسلمين والشعب الفلسطيني؛ لأنّها مدينتهم المقدّسة، وذلك لأنّ الله جلّ وعلا قيّد وعده لبني إسرائيل بالإيمان وتطبيق الشريعة، وهم نكصوا على أعقابهم، ونكثوا كلّ عهودهم معه، بل وتجرّأوا على الذّات الإلهيّة؛ لذلك قطع الله معهم كلّ عهد وقطّعهم في البلاد، فقال مخبراً إرميا: "ثم قال الرّب لي: وإنْ وقف موسى وصموئيل أمامي لا تكون نفسي نحو هذا الشعب. اطرحهم من أمامي فيخرجوا. ويكون إذا قالوا لك: إلى أين نخرج؟ تقول لهم: هكذا قال الرّب، الذين للموت فإلى الموت، والذين للسّيف فإلى السّيف، والذين للجوع فإلى الجوع، والذين للسّبي فإلى السّبي...وأدفعهم للقلق في كلّ ممالك

Digitized by Birzeit University Library

الأرض"[99]، وكذلك قول الرّب: "يَضرب الرّب إسرائيل كاهتزاز القَصَب في الماء، ويستأصل إسرائيل عن هذه الأرض الصّالحة التي أعطاها لآبائهم، ويُبدّدهم إلى عبر النّهر"[100]، وجاء في القرآن الكريم "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم وإيّاي فارهبون"[101]، وقال جلّ وعلا عن تقطيعهم في البلاد بسبب كفرهم: "فلَما عتَوا عن ما نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قِردة خاسئين... وقطّعناهم في الأرض أُمماً منهم الصّالحون ومنهم دون ذلك، وبلوناهم بالحسنات والسّيئات لعلّهم يرجعون. فَخَلَف من بعدهم خَلْفٌ وَرِثوا الكتاب يأخذون عَرَض هذا الأدنى ويقولون سَيُغْفرُ لنا وإنْ يأتهم عَرَض مثلُه يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أنْ لا يقولوا على الله إلا الحق، ودَرَسوا ما فيه والدّار الآخرة خيرٌ للذين يتّقون أفلا تعقلون"[102].

Digitized by Birzeit University Library

الهوامش

1. انظر إسرائيل فنكلشتاين وزميله: التوراة اليهودية-ترجمة سعد رستم-الأوائل للنشر والتوزيع-دمشق-ط1-2005م. (ص29-36)
2. انظر ما سبق: (ص31)
3. كوهن: التلمود-نقله إلى العربيّة د. سليم طنّوس-دار الخيال-بيروت-ط1-2008م. (ص26)
4. ما سبق: (ص27)
5. ما سبق: (ص36)
6. ما سبق: (ص36-37)
7. ما سبق: (ص209)
8. ما سبق: (ص209-210)
9. العهد القديم: التثنية 14
10. العهد الجديد: إنجيل متّى 23
11. العهد القديم: يشوع 6، وانظر أيضاً 8، 10
12. العهد القديم: التثنية 20
13. العهد القديم: يشوع 17
14. ما سبق: 9
15. العهد القديم: القضاة 3
16. العهد القديم: يشوع 11
17. ما سبق: 13
18. ما سبق: 7

Digitized by Birzeit University Library

19. العهد القديم: القضاة 19
20. العهد القديم: إشعياء 1
21. انظر العهد الجديد: إنجيل متّى 21
22. العهد القديم: التكوين 15
23. سيجموند فرويد: موسى والتوحيد-ت د./عبد المنعم الحفني-مطبعة الدّار المصرية-ط2-1978م. (ص210)
24. كوهن: التلمود. (ص113)
25. انظر ما سبق: (ص113-114)
26. سيجموند فرويد: موسى والتوحيد. (ص113)
27. أنظر فنكلشتاين وزميله: التوراة اليهودية. (ص37)
28. ما سبق: (ص38)
29. القرآن الكريم: سورة البقرة 79
30. العهد القديم: التكوين 14
31. ما سبق: 20
32. ما سبق: 23
33. ما سبق: 23
34. العهد القديم: صموئيل الثاني 5
35. ما سبق: 5
36. العهد القديم: أخبار الأيام الأوّل 11
37. إسرائيل فنكلشتاين وزميله: التوراة اليهودية. (ص25)
38. العهد القديم: الملوك الأوّل 11

Digitized by Birzeit University Library

39. انظر العهد القديم: التكوين 21، 26
40. انظر العهد القديم: الخروج 13
41. انظر العهد القديم: القضاة 3، 10، 13
42. انظر ما سبق: 14، 15
43. انظر العهد القديم: صموئيل الأوّل 5، 13، 17
44. رجاء جارودي: الأساطير المؤسِّسة للسياسة الإسرائيلية-دار الغد العربي-القاهرة-ط1-1996م. (ص153)
45. انظر العهد القديم: الخروج 14
46. انظر ما سبق: 15
47. انظر ما سبق: 17
48. انظر ما سبق: 32
49. العهد القديم: يشوع 7
50. انظر ما سبق: يشوع 10 وما بعده، وصموئيل الثاني، وأخبار الأيام الأوّل 11
51. انظر ما سبق: يشوع 15
52. انظر ما سبق: يشوع 15، والقضاة 1
53. انظر ما سبق: يشوع 18
54. انظر ما سبق: القضاة 1
55. انظر ما سبق: القضاة 19
56. انظر العهد القديم: صموئيل الأول 17
57. انظر العهد القديم: صموئيل الثاني 5، والملوك الأوّل 2

Digitized by Birzeit University Library

58. انظر ما سبق: صموئيل الثاني 24، وأخبار الأيام الأول 21
59. انظر العهد القديم: الملوك الأوّل 33، 11
60. انظر ما سبق: الملوك الأوّل 11، والملوك الثاني 23
61. انظر العهد القديم: الملوك الأوّل 12
62. انظر ما سبق: الملوك الأوّل 12
63. انظر العهد القديم: الملوك الثاني 21، 23
64. انظر ما سبق: الملوك الثاني 24، 25
65. انظر العهد القديم: أخبار الأيام الأوّل 20
66. انظر العهد القديم: أخبار الأيام الثاني 36
67. انظر ما سبق: أخبار الأيام الثاني 36
68. انظر العهد القديم: أخبار الأيام الأول 36
69. انظر العهد القديم: عَزْرا 7
70. انظر العهد القديم: المزامير 135، 137
71. انظر العهد القديم: إشعياء 52، ويوئيل 3
72. انظر العهد القديم: إرميا 3، 4
73. انظر ما سبق: إرميا 9، 11، 23
74. انظر ما سبق: إرميا 15
75. انظر عارف العارف: المفصّل في تاريخ القدس-مطبعة المعارف-القدس-ط2-1986م. (ص2)
76. إسرائيل فنكلشتاين وزميله: التوراة اليهودية. (ص77)
77. انظر العهد القديم: إشعياء 27، 52، وتتمّة دانيال 1، ويوئيل 3

Digitized by Birzeit University Library

78. العهد القديم: حزقيال 16
79. القرآن الكريم: سورة البقرة 144
80. محمد علي الصّابوني: صفوة التفاسير-المكتبة العصرية-بيروت-2017م. (ص85-869)
81. ما سبق: الأنبياء69-71
82. ما سبق: التّين 1-4
83. محمد علي الصّابوني: صفوة التفاسير. (ص1517)
84. انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم-المكتبة القيّمة-مصر-ج4-1991م. (ص526-527)
85. القرآن الكريم: الإسراء 1
86. كوهن: التلمود. (ص205-206)
87. انظر ما سبق: (ص206)
88. العهد القديم: يشوع 5
89. ما سبق: يشوع 6
90. انظر العهد القديم: صموئيل الثاني 24، وانظر أيضاً أخبار الأيام الأول21
91. انظر العهد القديم: الملوك الأوّل 12
92. انظر العهد القديم: الملوك الثاني 21، 23
93. العهد القديم: إرميا 5، 9، 11، 23
94. العهد القديم: التكوين 32
95. العهد القديم: صموئيل الثاني 24

Digitized by Birzeit University Library

96. العهد القديم: أخبار الأيام الأوّل 21
97. العهد القديم: الملوك الثاني 21، 23
98. ابن قيّم الجوزيّة: مدارج السّالكين-دار الحديث-القاهرة-ج2-2005م. (ص320)
99. العهد القديم: إرميا 15
100. العهد القديم: الملوك الأوّل 14
101. القرآن الكريم: البقرة 40
102. ما سبق: الأعراف 166-169

Digitized by Birzeit University Library

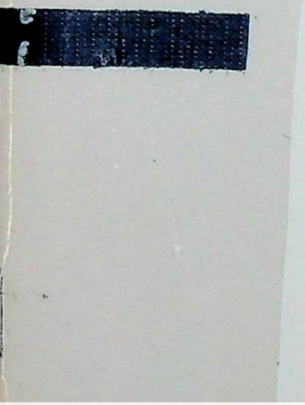

Digitized by Birzeit University Library